الفصل الحادي والعشرون

المنابع العليا لحبونا

تمتلك شغبة رأسين يتجهان في ناحيتين متضادتين من عند ممر يقع على الطريق الرئيس بين ظهران والطلحة ناحية الجنوب وبين قرية الحرجة وقرية رحة تجاه الشمال. كان المجرى الذي يقود إلى رحة أسفل حقول عيفة قصيراً، وصعباً ومنحدراً بلطف، بينما كان الثاني طويلاً ومنحدراً بهبوط ٣٠٠ قدم، وكان طريقه صعباً بصفة بارزة (للحيوانات) ويقود إلى أسفل إلى الرؤوس العديدة لشعيب حمرة. هبطنا راجلين تاركين الجمال لتجد الطريق المناسب لعودتها.

وصلنا بعد هبوط ١٥٠ قدماً إلى قمة صخرة محمرة مشربة بالبياض ويطلق العرب عليها اسم مغر ويستخدمونها على شكل مسحوق في الأغراض البيطرية – وهي صخرة ناعمة وسهلة الانسحاق تمتد إلى مسافة أسفل تماسها مع البازلت الذي يعلوها، غير أنها تتصلب إلى صخرة ناعمة بيضاء وصلبة عندما تكون وسطاً وتعود مرة أخرى للتكسر حين تعلو هي فوق صخور جرانيتية والفلدسبار المكشوف من أسفل. تعرف الخبراء في المتحف البريطاني على الصخرة بأنها بوكسيت بناءً على العينة التي كنت قد أرسلتها إليهم، وهو خام الألومونيوم. وقد وجدته في وقت لاحق متكشفاً على الجانب الغربي لحاجز السراة ويستنتج من هذا أن هذا العرق من البوكسيت الذي يبلغ عمقه، حوالي ١٠٠ قدم يمتد أسفل امتداد القلنسوة البازلتية للسراة والتي يبلغ طولها ١٠٠ ميل من ناحية الشمال إلى الجنوب ويبلغ عرضها حوالي الميل الواحد. تمدنا عملية حسابية سريعة بالحجم الكلي

للصخر بما يقدر بـ ٧٠٠٠ مليون طن شحني، ولا أدري كم من البوكسيت سينتجه هذا، أو حقيقة، إن كان مربحاً تجارياً. خطر لي أنه من المجدي إجراء التعدين ثم نقل المادة على الطريق الجبلي الرأسي. سيكون إنشاء طريق مكلفاً جداً بلا شك، ولكن هنا -مع ذلك- فيبدو أنه مصدر لم يستغل بعد من مصادر الثروة الطبيعية.

يقع رأس هذه الأرض التي تسمى شعيب حمرة حوالي ميل واحد إلى الخلف ناحية الشمال الغربي، وبعد أن امتطينا دوابنا سلكنا مساره الشرقي إلى أسفل عبر غابة خفيفة وكثيفة من أشجار الطلح تقف في وسط خليط من جلاميد جرانيتية، تذكرني مرة أخرى، ببلاد الطائف. اعترضت طريقنا عشرات المسايل الصغيرة المنحدرة من عند سفوح الجبال وذلك أثناء ما كنا نقترب تدريجياً من مجرى حمرة الرئيس الذي يجري إلى يسارنا إلى أسفل إلى وسط حوض ضخم غاطس بين آبار من صخور بركانية أكسبته مظهر الفوهة البركانية الضخمة. كانت هنالك خيام مبعثرة في المسايل الأكبر وهي: عين البقرة وشعيب دخس، تدخل مجرانا من ناحية الغرب، ممرنا بأناس ربما كانوا رعاة يرعون قطعانهم في هذا الغطاء النباتي، بينما مررنا من حين لآخر بمجموعات منهم راجلين ومرحين أو هم على ظهور الحمير عائدين من سوق طلحة الأسبوعي وهو سوق الأربعاء. لقد منعتنا زيارتنا إلى قمة مسورة من هذا النشاط، وكان النهار قد تقدم كثيراً. كانت المسيرة أحياناً صعبة جداً في مسارات ضيقة جداً بين جلاميد بينها أشجار الطلح ذات أشواك رهيبة.

تركنا المجرى الآن لنجد أنفسنا مرة أخرى في رافد آخر من روافد حمرة، وهو شعيب نقيل الرملي الضيق الذي تحيط به من على الجانبين سلاسل جرانيتية

عالية، تقع سلسلة قررة العليا من خلفها على مسافة ميل واحد على يسارنا، ويجري تحتها -كما قيل لي- طريق وجد أنه مناسب لحركة سيارات الأمير سعود وجيشه أثناء حرب اليمن. جاءت السيارات من أبها، أغلب الظن أنها كانت سالكة طريقنا هذا حتى أمواه ومنها إلى فيض ومنها إلى الطلحة وظهران. ربما كان الطريق من فيض إلى الأمام هو درب الفيل القديم. يتصل نقيل مع مجرى آخر يسمى حنكة الذي مررنا فيه بواسطة طريق مختصر فوق أرض صعبة جداً من جلاميد ضخمة وقادنا إلى سلسلة منخفضة وإلى مضيق. ترجلت عن دابتي لأسير على قدمي صاعداً أتفقد أكوام الحجارة العديدة على جانبي ما يبدو وكأنه ممر شيد بعناية، غير أنني لم أجد معنى يفسر هذا، وكان بمقدورنا أن نظل في المجرى إلى الموقع الذي ينبعج فيه مع شعيب إسادين من ناحية الشمال والغرب بالتتابع ويجري إلى داخل حوض حنكة. يعني الاسم «ضيق»، والذي يشير بوضوح إلى ذلك الممر الضيق مهما كان مغزاه في الأزمان الغابرة.

ضربنا في سيرنا فوق منحدرات حجرية منخفضة، بعد أن تركنا المجرى يواصل مساره إلى حمرة، أيضاً تسمى القو، تقع على جانبه الأيمن، الذي تشاهد عليه آثار إطارات سيارات عبرته قبل عامين، لا تزال معلمة فوق سطحه الصلد. كانت الآثار تتجه ناحية الجنوب الشرقي ولكنها لم تصمد أمام خط الصرف التالي، وهو فرع آخر لإسادين الذي استدرنا فيما يليه ناحية الشرق إلى أسفل إلى حيث شعيب آخر لنصل إلى مصرف حمرة الرئيس في أرض تسمى أفياضاً، وهي فرجة جميلة يبلغ عرضها ميلاً واحداً وكانت أرضيتها من رمال وردية جميلة وعلى الجانبين وقفت سلاسل صخرية كان طير الحجل الذي كنت قد اكتشفته متوافراً فيها.

يمكننا الآن أن نرى الطلحة أمامنا وقد وصلنا إليها خلال عشر دقائق وذلك قبل غروب الشمس بقليل لنعسكر بجوار أشجار الطرفاء الكبيرة في بطن السيل الرملي لأحد المجاري العديدة التي تصب هنا والتي تكون حوضاً ذا اعتبار لحقول القرية. لم نتمكن من الذهاب إلى السوق، غير أنه يبدو أن بعض الزوار من خارج المنطقة قد تخلفوا مع مضيفيهم لتناول إفطار رمضان معهم ولقضاء الليل. كان اسم أحدهم ابن داهش وهو رئيس شعيب فروان الذي أقبل ومعه رئيس الطلحة واسمه ملخي ليتفقدانا بعد عودتنا. لقد دعوتهما لمشاركتنا طعام الإفطار، غير أنهما لم يستطيعا ذلك، إذ كان ملخي يتوقع ضيوفاً آخرين ينتظرونه في منزله، وقد غادر كلاهما قبل غروب الشمس. يبدو أن الطرفاء الكبيرة التي عسكرنا تحتها كانت هي الوكر للصقر المحلي الذي راودتني الآمال أن أضيفه إلى مجموعتي. ولكن هذا لم يحدث.

أقبل الطائر العظيم في حذر على ارتفاع كبير، وأحس بأن هنالك شيئاً غير طبيعي يحدث عند شجرته، ومن ثم طار لحال سبيله غير أنه عاد مرة أخرى ليجدنا لا نزال محتلين الموقع، وأخيراً اختفى تماماً ليبحث لنفسه عن سرير في موقع آخر لقضاء الليلة. كانت طيور الغداف هنا من الصنفين المعروفين في الجزيرة العربية الصنف الجبلي أو المروحي الذيل والصنف الصحراوي الشائع البني الرقبة. كان كلاهما وافراً هنا وكانت كلها عائدة لمأواها وجاثمة بإزعاج لقضاء الليلة.

كان ابن داهش رجلاً ذا تأثير، قوياً وذا ميول أرسطوقراطية قد أسرَّ إلينا بفخر بأننا لم نعد في أرض قحطان، بل نزلنا ضيوفاً على قبيلته العظيمة وادعة، والتي مثلها مثل قبيلة يام وقبيلة دهم وغيرهما تكون قسماً مستقلاً ومهماً للأصل التاريخي العظيم لحمدان بن زيد. تشق الحدود القبلية بين وادعة وسنحان خطوط صرف لكل من أسادين وحنكة وتعبر فوق خط حمرة عند الطرف وباتجاه أعلى الوادي

لأفياض لتواصل الانسياب إلى حافة الهضبة العالية. يستمر خط حمرة-أفياض، وعلى جانبه الأيمن تقف قرية طلحة عند منفرج المجرى الصغير الذي عسكرنا فيه فوق منحدرات سلسلة تسمى خيالة، وأيضاً يطلق عليها اسم الطلحة ومنها إلى قرية طرف الضراع حيث تصبح مضيقاً يسمى الضيقة والذي بدوره يصبح شعيب مرار في قرية تسمى ملحة، ثم يستمر عبر أم قرة إلى مجرى خنق عند قرية قرن. ومن عند هذا الموقع وإلى بقية الأجزاء إلى أسفل فهي أرض تابعة لقبيلة يام خالصة، بينما إلى اتجاه أعلى الوادي بما في ذلك ملحة فهي أرض تابعة لقبيلة وادعة.

تقع قرية طلحة، التي تحتوي على ٢٠٠ منزل وعدد من السكان -بما في ذلك قاطني الأبراج المبعثرة- حوالي ١٠٠٠ نسمة، في المنحنى الذي يكونه مجرانا هذا الصغير وفي الوادي الرئيس على هضبة مرتفعة قليلاً بين حقول مستوية واسعة، وتوجد في هذه حصون من حين لآخر تلتحم مع سفوح سلسلة خيالة وتمتد إلى مسافة مع اتجاه أسفل الوادي في شكل وتر لتنتشر من حول القرية. أحسست بسريان الحياة الطبيعية في هذه القرية وهو إحساس لم أجده في أي قرى أخرى تابعة لسنحان أو شريف التي كنا قد عبرناها، وكانت بها مساكن يبدو أنها حديثة إذ إنها مبنية بعناية وقد برزت فتحات نوافذها داخل إطار مستطيلات عريضة من الجير الأبيض، كانت القرية متعرجة إلى حد ما وبها مجموعة من المنازل التي تبدو وكأنها مهجورة.

يلتف طريق السيارات حول سلسلة خيالة المسننة حيث علامات دواليب السيارات واضحة، ليواصل مسيرته إلى وادي طلحة وإلى قرية معلف الصغيرة على بعد مسافة ميل واحد. ثم يضرب إلى أعلى شعيب قحيف قبل أن يتفرع. يصعد الفرع الأيمن الذي سنتبعه إلى السفوح السفلى لشثاث إلى مضيق يقع بينه

وبين السلسلة المجاورة (القهرة)، ثم يهبط عبر طريق صعب إلى ظهران. أما الفرع الآخر الأيسر والذي سلكته سيارات الأمير سعود في طريقها إلى سهل حمد على الحدود بالقرب من نقعة، فهو درب الفيل، ويصعد مجرى شعيب قوية إلى ممر منخفض من سلسلة القهرة وسلسلة بياح، ثم يهبط إلى قرية مجزعة في وادي عرين، تجاه الوادي بالنسبة لظهران ثم يمر عن طريق سلسلة تسمى مسلولة تجاه نقعة، وأخيراً يتجه إلى صعدة وصنعاء.

أخبرني ملخي، مرشدي، أن طريق الفيل إلى الشمال من فيض يمر خلال سهل خبت ومجرى خنقة، ثم يعبر الجزء الأعلى من وادي العرين (ربما عند غرس) في طريقه إلى طريب وما يليها. كانت معظم التلال المنخفضة والسلاسل في منطقة طلحة من البازلت، الذي برزت سفوحه من عند أرضية رقيقة من الصخر الرملي. تقع طلحة نفسها على ارتفاع ٦٧٥٠ قدم فوق سطح البحر، وقد أحسست بلطافة المساء هنا تحت سماء امتلأت بالسحب منذ غروب الشمس، غير أن مقياس الحرارة سجل أربع درجات من الصقيع أثناء الليل، كما سجل عند الساعة ٨,٣٠ صباحاً وفي الشمس ٦٢ درجة فقط.

لقد تسلقت إلى قمة خيالة لألقي نظرة لما حوله، وذلك قبل أن نترك المعسكر للمرحلة التالية من رحلتنا، والتي من أجلها تحركت جمال العفش متقدمة علينا. لقد شكرت رفيقي القويين وصرفتهما مع إكراميات لهما مني، وكلاهما ينتمي إلى سنحان، كانا عظيمين، متيني البناء الجسمي، كما كانا نحيلين وشديدي الاحتمال وكانت سماتهما نموذجاً للسامية ولكن للأسف، وقد أدهشني أن أجد ذلك فيهما، فقد كانا متأثرين بعقدة النقص برغم أنهما كانا رقيقي الحديث والسلوك ومتواضعين. يطلق آل سنحان (وشريف) شعورهم الطويلة مفرودة أو مجعدة وفي

الحالتين فهي مدهنة بكثافة. يصعب التمييز من أول وهلة حقيقة بين العنصرين إلا أن اليهود -وهم قاطنو المدن- كانوا ذوي قامات أصغر مقارنة بهؤلاء الذين يعيشون في الجبال. وربما جرى الدم العربي نفسه في كليهما وذلك لأن اليهود الأصليين في جنوب الجزيرة العربية كانوا قد تحولوا من الوثنية القديمة. رافقني أحد الرجال المحليين إلى قمة خيالة التي ترتفع إلى حوالي ١٥٠ قدماً فوق مستوى الحوض، غير أنني قد سبق لي أن وصفت معظم ما قد رأيت هناك.

تقع قرية محاري الصغيرة مباشرة تحت طرف الطلحة تجاه أسفل الوادي، على بعد ثلاثة أرباع الميل، وتتكون من ٣ أو ٤ مبانٍ أبراجية في وسط الحقول مع وجود بعض أشجار التين وأشجار أخرى على جانبي المجرى. يوجد في قسم الطلحة وعند قاعدة خيالة، غابة جميلة من الأثل الكبير مبطنة الجانب حول بئر تابعة للقرية. كما تقع، على بعد ميلين ناحية الجنوب الشرقي وعند رأس مضيق ضيقة القرية المتعرجة التي تسمى طرف الضراع، والتي تمتد حقولها وبساتينها مسافة أعلى فوق كل من وادي طلحة ورافده شعيب قحيف، الذي تقع فيه كذلك وعلى مسافة أربعة أميال ناحية الجنوب الغربي، قرية آل ثابت.

توجد المزرعة ذات البئر والمسماة بئر طيار على بعد ميلين إلى الغرب من مجرى صغير آخر بينما يبدو أن قرية العر هي استمراراً لطرف الضراع في أعلى قحيف أو في مسيل رافد، وتقع، أخيراً، وفي الطريق إلى ظهران، وعلى بعد ميل واحد قرية معلف، وهي واقفة إلى الخلف من الجانب الأيمن لوادي الطلحة وبجوار غابة طرفاء ذات اعتبار توجد داخل حقول الذرة الصفراء. لم تكن ملحة، وهي أسفل المضيق، مرئية لنا، إلاَّ أنها تقع قليلاً ناحية الجنوب الشرقي من الطلحة. كان تل شثاث، الذي يبرز من داخل الجدار الرئيس للجبل، وتماماً ناحية

الجنوب من موقعنا، بينما كانت هنالك قمة منعـزلة أخرى إلى شمال شثاث تسمى عمان أعلـى وهي منبع شعيب رياح، وهو أحد روافـد وادي العرين الذي يدخله من أعلى ظهران. يهـبط مسيل فروان من درة، وهي عـبارة عن سنام على سلسلة السراة المسطحة البركانية.

سرنا حتى مـعلف وإلى ما يليها سالكين طريق السيـارات الذي كان أيضاً هو «طريق الفيل». تفـرع الطريق واتخذنا الجانب الأيمن منـه ناحية منحدرات سـفوح شثاث إلى حيث يوجد ممر تحيط على يمينه صخرة بازلت مربعة القاعدة ينهض من فوقهـا التل. كان ارتفاعنا هنا ٧١٠٠ قدم فوق سطح البـحر ثم هبطنا على المسيل الصخري المسـمى معيجب الذي قابلتنا فـيه جماعة من سنحـان عائدين من سوق الخميس في ظهران، الـتي تبدو لنا عن قرب. يجري معيجـب داخل شعيب السد الذي كنا قد دخلناه على بعد نصف الميل أعلى قرية آل جـبيت وعبرنا إلى المنحدر المقابل، والذي من عند قـمته نظرنا إلى أسـفل إلى حيث البلدة. ثم عبـرنا حول حافة ساحة السوق خلال دقائق وقد كان السوق عامراً بالناس، ثم مررنا عبر البلدة – التي كانت أكثر قليلاً من مجرد قـرية– لنعسكر في مجرى وادي العرين حوالي ٦٧٠٠ قدم فوق سطح البحر.

أسرعت لأرى ما أقدر على مشـاهدته حيث رأيت واحداً من أفضل الأسواق وأكثرها حيوية مقـارنة بكل الأسواق المحلية، وعلى الرغم من أن كل الناس كانوا –بالطبع– صائمين. لم يكن العنصر النسائي واضحاً، غير أن الرجال كانوا مرحين وطروبين، وكانت التجارة كما هو واضح لنا، جيدة. ترك معظم الناس مساوماتهم عند وصولنا، واصطفـوا بجمهـرة كثيـفة على حافـة ساحة السـوق ليرونا ونحن

نعبره. توجد لديهم هنا صناعة مثيرة للاهتمام ألا وهي صناعة القدور والمقالي المنزلية من حجر أخضر رمادي، وهو نوع من الحجر الصابوني – يقلع من المحيط الصخري المجاور. يمكن وضع هذه القدور بعد دهنها جيداً بالشحم أو الدهن، فوق النار لأغراض الطبخ. كما يصنع أناس هنا معاطف نسائية مريحة من جلود الحملان ويكون الصوف الطبيعي إلى الداخل ويزخرف الجلد بخياطات ملونة، أما في حالة معاطف الرجال، فهم يستخدمون جلد الأغنام الخشن ويكون الصوف فيها إلى الداخل مثل البوشتين الأفغاني. كانت المعاطف النسائية قصيرة ولا تصل إلى أسفل الخصر. كما كانت أعمال الحديد والفضة في ظهران في يد أسرة يهودية واحدة مكونة من ثمانية أشخاص ويسمى رئيسها جميلاً وهو الذي كان قد زار نجران حينما كنت أنا هناك. وقد صنع لنفسه الآن طقماً كاملاً لأسنان صناعية للفك الأعلى، من الفضة، وكان في ذلك إرضاء كاملاً له.

كان من حظي أن أجده مقيماً هنا وذلك لأنه كان ميالاً لقضاء معظم وقته في صعدة. لقد وقعت لي كارثة كبيرة في طلحة وذلك حينما كنت مشغولاً بملاحظاتي للنجوم بمزواتي حينما توقف النابط التانجستي، وقد فشلت كل محاولاتي لإعادته للعمل. بدا لي وكأنها نهاية أعمالي في ملاحظة النجوم. وهو أمر محتمل ملأني بالرعب، وذلك لأن بوصلته موشورية ولا يمكن تحديد قيمتها، وتحتاج إلى عمل دقيق أكثر لتعطي القيمة الكاملة لنتائجها، خاصة في حالة الشوشرات المغناطيسية في بلاد بازلتية مثل هذه الأنحاء. كان سعد هو الذي شاركني الحزن وهو الذي قدم لي الاقتراح بأنه إذا كان ذلك اليهودي لا يزال في ظهران، فربما استطاع أن يصلح التلف. وقد وجدناه في ظهران، هذا حقيقة، غير أن جميلاً بدا كئيباً جداً حينما رأى الأداة التي لم ير مثلها من قبل قط. أريته

النابض التانجستي، غير أن كل ما عمله هو كان الوعد بالتفكير في الموضوع. حضر إلى معسكرنا صباح اليوم التالي ليقول: إنه مستعد لمحاولة التجربة دون ضمانات بالنجاح. جلسنا وجلس هو يراقب حركاتي باهتمام شديد، وأنا أشرح له كيفية عمل النابض وكيف أنه لا يؤدي هذه الوظيفة الآن. ثم قمت بتفكيكه من الأداة بعد ذلك وفككته أكثر إلى أجزاء صغيرة. التقط جميل هذه الأجزاء بعناية ثم ذهب. كانت أمامه فترة عشرة أيام للفشل أو النجاح، وذلك لأننا كنا نعد العدة خلال هذه الفترة دراسة لمسح الحدود.

كنت أقابل في هذه الأثناء بعض زوار السوق، من أولئك الذين قد زاروني في المعسكر. طلب مني محمد بن داهش -من أبناء شعيب فروان والذي كنت قد قابلته من قبل في طلحة، وكان ينوي زيارة سوق الخميس في ظهران، بلطف- أن يكون مرشداً لي خلال الرحلة القادمة. كان الانطباع الحسن الذي تركه في مقابلتنا الأولى لا يزال قائماً، وقد وجدته كما كان رفيقاً جذاباً وذكياً وملماً بالكثير من المعلومات في إطار الأبعاد المحدودة للبلاد ولأهلها، لقد تزوج محمد حديثاً من فتاة بدوية عمرها ١٤ عاماً، وكان يضج متذمراً من هذه الرحلة إلى ظهران تلك التي ستحرمه من صحبتها لمدة ٢٤ ساعة وحتى بعد عودته للوطن في الصباح التالي فإن صيام رمضان سيحرمه من متعة اللقاء بها حتى غروب الشمس. لقد أصبح محمد شديد العاطفة تجاهها، ولم يكن بأي حال رجلاً شاباً، ولم تكن هي، بالطبع، أول زوجاته. لقد توصل محمد إلى حل وسط في النهاية وهو أن يقوم بتأخير عودته إلى المنزل بغرض مرافقتي إلى قمة شثاث في اليوم التالي، ولم نفترق إلاَّ عند الساعة ٤,٣٠ عصراً وعند سفح هذا التل ليذهب كل منا بعد ذلك في طريقه. لقد كان محمد بالتأكيد رفيقاً ممتازاً وقد قدّم لي الكثير مما زاد معرفتي ببلاده.

قام بزيارتي بعد إغلاق السوق كل من ابن كعبان رئيس قرية العر، وابن عرير وهو أيضاً رئيس قرية مجزع التي تقع إلى أسفل وادي العرين. لدى كل أعيان وادعة العديد من المظالم وكانوا بلا شك يأملون فيَّ ويتوقعون مني أن أتدخل لصالحهم مع السلطات. برزت المظالم بسبب تعيين دليم بن محمد بن دليم الذي تولى رئاسة شريف بعد وفاة والده، محمد، فأصبح بذلك أميراً على منطقة هذه الهضبة التي تشمل حرجة وظهران، العاصمة، خلفاً للأمير النجدي الأصل واسمه عبدالله بن عثمان.

لم أدرك وأنا في الحرجة أن صلاحيات دليم قد امتدت إلى ما وراء كل من إقليم شريف وإقليم سنحان، لتصل إلى منطقة وادعة التابعة لظهران؛ لذا، فإن أهالي وادعة محقون في مظلمتهم في تعيين رئيس من قبيلة منافسة لهم –وكانت منافسة لهم في السابق– لموقع السلطة عليهم. كل ما كانوا يريدونه هو إعادة الوضع كما كان في السابق، بإيفاد موظف من الرياض أو مكة أميراً للمنطقة، إذا ما كان الغرض من ذلك هو معاملتها كوحدة واحدة لأغراض إدارية.

لم يكن من حقي بالطبع أن أتدخل في مثل هذه الأمور، غير أنني أرى بالتأكيد أن الشكوى منطقية بما فيه الكفاية، برغم أنه، حسب معرفتي، فإن دليم نفسه، برغم إنه كان أميراً إسمياً على المنطقة، إلا أنه نادراً ما كان يقحم نفسه في بلاد وادعة، التي يبدو أن إدارتها تقع على كاهل كل من محمد بن بريكان، مدير الجمارك والمالية، ومحمد القدسي، مدير قوة الشرطة الصغيرة المؤلفة من ٢٠ رجلاً.

ولد محمد القدسي في أبها. وهو ابن مواطن من القدس وكان قد شغل منصباً رسمياً في تلك المنطقة خلال النظام التركي القديم. وقد كان رجلاً غريب

المظهر، صغير الحجم، حقير الطلعة، إلاَّ أنه فيما يبدو كان قادراً وحاذقاً في عمله. لقد قابلته في أجنحته المريحة جداً في منزله في البلدة ووجدت أن غرفة الاستقبال لدية كانت نظيفة أكثر من العادة وأنيقة. كانت الأجزاء العليا من الجدران مطلية بالجير الأبيض، بينما طلي الجزء الأسفل بالأخضر الناعم، مع شريط تزييني ملوّن يمتد في خط عريض حول جدران المجلس على أسلوب أبها. كانت الغرفة بسيطة ولكنها أنيقة، وكانت -بلا شك- من عمل امرأة من أبها كانت تشارك زوجها في منفاه في هذه البقعة النائية. تناولنا طعام الإفطار إلاَّ أن محمد القدسي قد أصر على تقديم الأطعمة المنعشة إلى جانب القهوة العادية والشاي وكان يمطرنا بالتمر الممتاز الذي جلبه من بيشه، وبالزبيب، وبالرمان الطازج المحلي.

كما احتفى بنا محمد بن بريكان، وأصله من حضر عنيزة، الذي دعانا عنده للإفطار وقدم لنا مأكولات مشهية منعشة، وبعد مضي نصف ساعة، قدم إلينا عشاءً كاملاً في منزله الفاخر الذي يقع على الطرف الغربي للبلدة. تناولنا عنده الإفطار المكون من القهوة مع تمور بيشة وعنب الخريف الأسود الذي جلب من صعدة، وبعض اللقيمات الصغيرة اللذيذة، وهي ضرب من الكعك المحلي المقلي بالدهن. كان العشاء أساساً الرز الوافر مع لحم الضأن، غير أن اللحم كان غير مطهو جيداً وكان قوياً مع قرع مقلي ومشرح في أطباق من صلصة مرق اللحم. كانت وظيفة مضيفنا تنحصر في ضبط وإقرار الضرائب على تجارة البن من اليمن، والتي أصبحت ظهران هي المركز الرئيس لها في أراضي المملكة العربية السعودية. كان البن مصدر دخل مهم للحكومة وقد علمت من محمد أن تجربة الريال السعودي كانت قد طبقت ثم ألغيت هنا كما في نجران.

كانت ظهران نقطة حدودية ذات أهمية كامنة على الرغم من أن محمداً لم ير أنه من الضرورة إقامة حامية عسكرية هنا، وكانت وظيفة الشرطة الأساسية هي ضبط

التهريب عبر الحدود. كان رجال الشرطة حتى هذه اللحظة يعيشون في مساكن سيئة محطمة على أطراف البلدة، غير أن محمد بن بريكان بما لديه من الصلاحيات قام ببناء نقطة شرطة جديدة على الموقع المسيطر من فوق هضبة تطل على البلدة. كاد بناء نقطة الشرطة هذه أن ينتهي في هذا الوقت، وبقيت الزخرفة الداخلية، والطلاء بالجير الأبيض والنظافة العامة وقريباً سيتم تسليمها للشرطة. تبدو النقطة مهيبة بلا شك، مبنية كلها من مواد حجرية ومن أخشاب العلب للأعمدة والرافدات. كان تقدير تكلفة الأشجار التي تم قطعها للحصول على هذا الخشب ٤٥٠٠ ريال ماريا تريزا أو حوالي ٢٢٥ جنيه إسترليني ذهبي. والذي يبدو أنه مبلغ مرهق وذلك لأن قطع الأشجار وإعداد الخشب قد تم كله على حساب الحكومة.

يسهر الناس إلى وقت متأخر من الليل خلال شهر رمضان، ولقد رتبت برامج رحلاتي المسائية بزيارة إلى جميل اليهودي الذي كان قد دعانا إلى الشاي والقهوة مع الزبيب والرمان. كان الرمان يقدم على هيئة بذور في الصحون وكانت حبوبه طازجة هذا الوقت، غير أنها هنا في ظهران يتم تخزينها بعد الحصاد وتدوم بسهولة من موسم إلى آخر دون أن تفقد مذاقها – كانت الثمار صغيرة ولكنها حلوة جداً. شاركنا في تناول الوليمة ابنا جميل وهما ولد وبنت غير أن زوجته لم تظهر إطلاقاً. غير أن مما لمحته عنها أثناء غسيلها للصحون، يدل على أنها جميلة جداً، وامرأة شابة. يبدو أن هذه الأسرة، إذعاناً لقيود رمضان، ظلت تحافظ على ذلك، برغم أن هذا الإذعان قد لا يكون ملزماً لها.

تقع ظهران على أرض عالية على امتداد الجانب الأيسر لوادي العرين، الذي كان عبارة عن صخرة من طمي يصل ارتفاعها ٢٠ قدماً مرتداً إلى الوراء بقوة وتبدو أشجار التين وشجيرات أخرى قد ضربت جذورها فيه لتساعد في التصاق كتل

البازلت الكبيرة التي كانت قد استخدمت في عمل المنحدر الخفيف. كان المنحدر على جانب الوادي الآخر، البعيد من المجرى سهلاً، غير أنه على كلا الجانبين على مسافة إلى أعلى وأسفل، فإن الحقول والبساتين ذات المساطب قد غطت الوادي. لقد استمتعت بإغفاءة القيلولة في فترة ما بعد الظهيرة في أول يوم لنا هنا، تحت ظل الحائط الحاجز الكبير وقد شعرت بالبرودة عنده، غير أن الجو كان دافئاً في الجانب المشمس من المجرى. كان المساء لطيفاً ودافئاً، بينما جلس كل من جميل وقدسي معي ليستمعا للأخبار التي تبث من جهاز اللاسلكي، برغم أنه كان هنالك صقيع بنسبة ثلاث درجات ليلاً. فقد كان استقبال اللاسلكي ممتازاً غير أن جميلاً لم يكن على طبيعته وهو يستمع إلى الحديث العبري من القدس الذي وجهت مؤشر الراديو إليه لمصلحته. «اشكانزي! قالها» كما قالها زملاؤه في نجران.

تبدو المياه في هذا المجرى في شكل غيل بعد السيول الموسمية، غير أن الوادي في هذا الوقت كان جافاً ورملياً. كانت آبار ظهران ضحلة نسبياً، إذ يتراوح عمقها بين ٤ إلى ٦ قامات، على عكس آبار طلحة حيث يكون عمقها من ١٠ و ١٥ قامة، علماً بأن مستوى الماء في كل الآبار في هذه المنطقة يرتفع في موسم السيول. كان اليوم بصفة عامة يوماً مريحاً ومملوءاً بالعمل بالنسبة لي، ولمَّا لم يكن لدي عمل خاص بالنجوم، فقد خلدت إلى مذكراتي.

كنت قد قابلت في منزل القدسي رجل دين جمع بين وظيفة القاضي والكاهن، وهو رجل ضخم، سمين يميل للتودد والشحاذة. كان مبكراً جداً -حقيقة- للوصول إلى معسكرنا صباح اليوم التالي، وقد شحذ بالفعل، وقد أعطيته ريالاً واحداً وقبله برشاقة. كان عليَّ أن أنهي أموري مع الرجال القائمين على أمر الجمال الذين رافقونا من نجران وقد انتهت الآن عقود عملهم. كان

الإيجار لعشرة جمال –وهنالك جمل لم يتضمنه الحساب لإصابته بالعرج إذ كان العدد الأصلي ١١– هو ٦٠ ريال ماريا تريزا فقط لرحلة ١٧ يوماً بالإضافة إلى الطعام لكل من الرجال والجمال على طول الطريق. وقد انصرفوا وكلهم فرح وغبطة بإضافة عشرة ريالات أخرى تعبيراً عن الشكر لهم.

ترتفع شثاث إلى ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر فوق مخروط ضخم مسطح القمة من البازلت، مخرَّم من كل الجهات كأنه أنابيب أورغان عملاق. كان الهيكل العاري للصخور المعدنية، اللامعة، غير الملائم تماماً للغطاء النباتي، ومع ذلك فإن كل صدع وكل شق فيه كان يبرز كأنه شجرة خليجية، وكان من أبرز هذه النباتات نبات الأغاف ونباتات أخرى سميكة الورق كانت لها المقدرة على الإمساك بالمياه وتخزينها لفترات جفاف طويلة، قد مكنها ذلك من احتلال موقع مسيطر فوق المنحدرات العارية وفوق القمة التي كنستها الرياح. لم يكن الصعود صعباً، فهو صعود إلى مسافة ٢٠٠ قدم من الممر، وقد استغرقت مهمتنا أنا وابن دهيش، حوالي ست ساعات نهارية فوق الجبل. لم يكن هنالك ما يدعونا للقلق، وقد منع الصيام عنا كل المنعشات، ولا بد أن نوفر فسحة من الوقت تمكننا من العودة إلى أوطاننا قبل غروب الشمس. كان المنظر رائعاً بحق، غير أن أداء بوصلتي المضطرب تحت تأثير المغنطيس المحلي كان مزعجاً لي بعض الشيء.

كان السجل الوحيد الذي وجدناه لزيارات سابقة لرجل إلى هذه القمة قد امحى ويصعب قراءته وهو نقش باللغة العربية يحمل التاريخ ١٢٣٢هـ (١٨١٧م)، الذي يدل –ربما– على فترة سيطرة السعوديين على هذه الأجزاء كما في اليمن بصفة عامة. كان النقش على صخرة بجوار كوم حجارة تم وضعه عند أعلى موقع بالقرب من تركيب دائري من الحجر والذي يبدو أنه كان بهدف جمع مياه المطر.

كانت السمة المثيرة للانتباه التي نلاحظها من عند القمة هي تلك الأرض التي لم تستكشف بعد والواقعة في شمال اليمن إلى ما يلي حدود الهضبة، لعام ١٩٣٤م بين سلسلة حضض شرقاً وممر علبين في تجاه الغرب. والتي تكون في تضاد مع الهضبة شمال ظهران وشريط وادي العرين التي يخترقه، والذي يتألف أساساً من طبيعة بركانية مع تداخلات جرانيتية وغطاء خفيف من صخور رملية هنا وهناك، فإن كل الهضبة، تجاه الجنوب على جانبي الحدود يبدو أنها مغطاة بطبقة سميكة من الصخر الرملي إلى شرق السلسلة البازلتية المسطحة التي تسمى السراة، والتي كانت بعض سماتها البعيدة في أرض اليمن التي تشاهد من هذا الموقع منها سلسلة قعمة القراد ومرعة وشحات، التي تحتل وتراً ضيقاً من الجنوب إلى الجنوب الغربي. تقع على القاعدة الشرقية لشحات على حدود اليمن عند قرية بقم، التي لا نراها بين سفوح التلال.

شمخت جبال عرو إلى الخلف قليلاً ناحية الجنوب الشرقي، ولا تزال بركانية، -وهي نقطة حدودية أخرى- وكذلك سويد في قرية ساقين التي لا نراها وتقع خلف سويد. كما يوجد تل صبر إلى الوراء مرة أخرى، وهو متواصل، أو منفصل قليلاً عن سلسلة السراة، ناحية الشرق داخل سهل سعيد وبالقرب من صعدة وبذلك يكوّن منبع شعيب مروان والذي هو الجزء الأعلى من وادي نجران. يهبط منبع مماثل آخر هو مسيل فلح من جانب سويد.

تقع الهضبة العالية الصخرية الرملية إلى الشرق من هذه السمات العالية، ترافقها سلسلة عوير وصعدة نفسها ويقع سهل بني سحر على جانبيها. تصطف إلى وراء عوير، في أراضي اتحاد كل من حاشد وبكيل المشهور، تل وسلسلة مفلك، وهي أقصى سمة، تشاهد إلى البعيد، ناحية اليمين وترتفع من سهل يسمى عمشية. نهضت قمة رأس السكر البديعة لجبل برش وهي من أبرز

السمات، قليلاً ناحية شمال مفلك، وربما كانت مخروطاً ناتئاً من الجرانيت، ويوجد قريباً منها وعلى الجانب نفسه تل بربر، وهو على هيئة سنام مسطح القمة مكون من صخر رملي يقف على هرم جرانيتي. يقال إن المسافة بين برش وصعدة حوالي رحلة ست ساعات، لنقل ١٥ إلى ٢٠ ميلاً، كان هذا كل ما أمكننا رؤيته من جانب اليمين، أرض مهيبة عارية. لقد كانت مفصولة من مجال الرؤيا ناحية الشرق تجاه الأرض الذي رأيناها من نجران، بسلسلة حضض المتعارضة.

تقع سلسلة حضض وبها أحد الأعمدة الحدودية ناحية الجنوب الشرقي من موقعنا، ويوجد تل صغير بارز عند طرفها الأيمن معلماً الموقع لقرية نقعة على سطح مسيل حنكة الذي يهبط إلى اليمن من عند الحدود ويتصل مع شعيب عرض وهو في طريقه إلى وادي نجران. يوجد قليلاً ناحية الغرب، مسيل آخر يجري أسفل المجرى نفسه وفي بطنه تقع القرية الحدودية (اليمنية) الصغيرة، بينما يهبط المصرف الرئيس لشعيب عرض نفسه من عند سلسلة شحات التابعة للسراة. يمكننا متابعة الشريط العام، من حضض نفسها، للحدود على امتداد سلاسل وعوا وشيبة وضيراوية. وقفت بارزة إلى حيث ممر علبين الذي يقع ناحية الجنوب من موقعنا والذي يعلمه تل مربع القمة وجرف فاغر، والذي إلى أسفله يهبط الطريق إلى حيث أرض جبال تهامة غرب الجرف. سأتمكن من وصف هذا الشريط الحدودي بتفصيل أكثر ولا ضرورة للخوض فيه هنا. كما لا أحتاج أن أحكي شيئاً عن البانوراما العظيمة لجبال فيفا التي تملأ المنظر ناحية الجنوب الغربي.

تنقسم الهضبة بواسطة مضيق عميق لوادي قتم قريباً من هنا وعلى مسافة نصف الطريق بين شثاث والحدود، وهو وادٍ يهبط من السراة من بين صخور رملية طويلة مكسرة تدعمها السلسلة المتعارضة الجرانيتية العالية التي تسمى قعمة أبا الشيخ. ولقد

برزت الأبراج السكنية من عند رأس المجرى، التابعة لقريتين صغيرتين هما زاوية وآل زاهر بينما نستطيع رؤية الحوض الواسع الكثير الشجيرات الذي يتحد فيه ومعه مضيق آخر يسمى قبضة مع وادي العرين في طريقه إلى حبونا. يوجد عدد من القرى الصغيرة في معقد المسايل هذا وهي تكون رأس وادي العرين أعلى ظهران وهذه القرى هي: آل سحامي وتقع على بعد أربعة أميال من موقعنا، آل سيار وآل رشيد، وهما قريتان منا، وآل محضي وسعرا على بعد الميلين منا وليستا بالبعيدتين من ظهران والتي يقع بالقرب منها مجموعة قليلة من الأبراج، الحصون. يقع عدد من القرى الصغيرة في العرين وناحية أسفل البلدة وفي انبعاج معتبر للوادي الذي تكونه روافد ثانوية من السفوح المجاورة، وهذه القرى الصغيرة هي: دار العرق، وقعه، وحيوان، وعطف وحيج وكلها مبعثرة على مسافة ثلاثة أميال من موقعنا وفي خط مستقيم. يتكون الأفق إلى البعيد إلى شرق مبنى البيت والسلاسل التي تقع وراء بدر، وتقود إلى المعلم المخروط البارز دائماً وهو قرن سبط والذي يقع الآن قليلاً ناحية الشمال الشرقي فوق قرى غيل.

كان الحيوان الوحيد من ذوي الأربع الذي شاهدته في شثاث هو الفأر الصغير الذي تأقلم مع الحياة في هذه التلال العارية، غير أن فرج كان قد أصاب بالرصاص ثعلباً أثناء غيابنا في واحة العرين. كما ظهر صقر طلحة في الصورة على ارتفاع عالٍ وكأنه يراقب أعمالنا، كما تكثر هنا طيور الغداف مروحية الذيل، إلى جانب بعض القنابر وسمنة الصخور، وطائر العوسق وهو يطارد الجراد. حان الوقت أن نغادر المكان وجدت عند الممر رجلاً متجهاً إلى ظهران وبرفقته جمل وجحش. امتطيت الجحش نازلاً معه قافلاً إلى المعسكر حيث كانت استعدادات إفطار رمضان قد شارفت على النهاية. زارني أربعة من رجال الشرطة المحليين في

المساء، ويبدو أنها كانت حملة شحذة، غير أنني قد صرفتهم خالي الوفاض على الرغم من إدراكي أنهم لم يتسلموا رواتبهم لعدة شهور خلت. لقد كانوا مجموعة حزينة حقيقة، وعلى الرغم من أنهم قد بادروا بزيارتي، إلا أنهم عاجزون عن الإدلاء بأي حديث حول أنفسهم، عدا أنهم لا يحبون ظهران إطلاقاً وهذا أمر غير عجيب، إذ لم تكن مكاناً مثيراً يشجع على الحياة فيه.

سرني أن يلتحق بمجموعتي ثلاثة من هؤلاء الرجال لمرافقتي وإرشادي للرحلة على امتداد الحدود. وذلك ليس فقط لأنهم سيتحصلون على بعض المال لشراء بعض الحنطة لطاحونهم، ولكن لأنهم قد التحقوا من قبل وبمستوى وظيفتهم هذه مع القسم السعودي في لجنة الحدود المشتركة وهم يعرفون تماماً المواقع الصحيحة للأعمدة الحدودية. كانت الساعة حوالي الحادية عشرة والنصف صباح يوم ٢١ نوفمبر عندما بدأنا رحلتنا على ظهور الحمير أسفل الجانب الأيمن لوادي العرين، سالكين درباً سهلاً يرتفع تدريجياً مع الخطوط الكفافية لطبقة الانحدار للسفوح إلى عند مضيق في السلسلة يكون الفاصل بين كل من وادي العرين ووادي قبضة. وصلنا إلى كومة كبيرة من ألواح صخور رملية ضخمة متساقطة من قمة سلسلة بازلتية، بعد أن مررنا بمجموعة من القرى كنا قد رأيناها من عند شثاث عند المنحنى العريض لوادي العرين، وإلى مساحة معتبرة لأراض زراعية ذات أشجار الأثل وبعض أشجار النخيل.

لقد تركت العديد من الأجيال المسافرة عبر هذا المكان بصماتها هنا، إذ كانت الألواح ممتلئة بالنقوش وبالرسوم. لم تكن الرسوم ذات أهمية تذكر –فهي رسوم بدائية من النوع الذي قد ألفناه وتنحصر في رسوم لأناس، ولوعل، ولحصين، ولحاملي رماح ممتطين وما شابه ذلك. ويرجع تاريخها إلى العصر الثمودي، وقد كتبت فوق بعضها نقوش عربية من النوع العادي، وليس عليها إشارة للتاريخ. كان

على أحد هذه الألواح شعارات توحي بالحروف الثمودية أو نحو ذلك، غير أن أكثر سمة مثيرة كانت عبارة عن نقوش عبرية، اثنتان منها كانتا ذاتا طول لافت للنظر. كانت هذه النقوش العبرية ذات تاريخ حديث نسبياً، من عمل يهود مسافرين بين صعدة وظهران.

كان وادي قبضة، الذي نزلنا إليه من عند المضيق موقعاً جذاباً. تقع القرية عند سفح الممر على جانب الوادي الأيسر وهي محاطة بالبساتين وبمزارع العنب التي كانت ألوان طيفها تتراوح بين الأحمر العميق والأصفر والأخضر وكلها ممتزجة بجمال مع الجرانيت والصخور الرملية عاكسة صورة جميلة وبشكل غير عادي. كانت البساتين مزروعة بالتين والخوخ والرمان، وكلها عارية من الأوراق الآن، غير أن مزارع العنب هي التي أكسبت المكان تميزه بالجمال. رأيت حتى الآن أشجار العنب كشجرات منفردة أو مجموعات صغيرة، غير أنها هنا كانت تزرع على مستوى تجاري مما جعل شمال اليمن مصدراً كبيراً للعنب، يقع رأس الوادي على بعد الميل الواحد باتجاه أعلى الوادي فوق صخور رملية صعبة، والتي قد ألقت بساطاً ضحلاً فوق الجرانيت التحتي للجانب الأيسر والتي كونت جداراً أعمق كثيراً إلى حدود مستوى المجرى على الجانب المقابل، والذي ارتفع إليه طريقنا بانحدار شديد بين كتل الصخور، وقد كان بطن الوادي مكوناً من الرمل الصافي.

نظرنا من عند المضيق على الجانب البعيد، على ارتفاع ١٤٠ قدماً فوق مستوى الوادي ناحية وادي قتم المستوى العريض الذي يهبط من عند سلسلة قبضة ليجري موازياً لها إلى موقع التقاء مشترك له مع وادي العرين. يهبط الطريق بعد ذلك إلى حوض ضيق صعب عبر السلسلة الصخرية ليوصلنا إلى مستوى الوادي وإلى مزارعه الكثيفة. كان الوادي كثيف الشجر وتوجد به أشجار الطلح

ومجموعات من الأثل وشرائط من أشجار الخروع ومزارع عنب، وبساتين وحقول ذرة صفراء مبعثرة- كانت المنطقة مدينة كبيرة وأكثر ازدهاراً من قبضة، وبها أربع قرى صغيرة. تقع اثنتان من هذه على الطريق وهما عمدة وآل طوق مجتمعتان معاً «كموقع وسط» تليهما مع اتجاه أسفل الوادي كل من رهوة وشط، وبهما أبراج خلابة يقعان قليلاً إلى أسفل عند موقع اللقاء مع العرين. تقع قرية حنكة، الكبيرة شيئاً ما، عند رأس الوادي في مدرج طبيعي للتلال الصخرية الرملية. لقد توقفنا هنا مدة ساعتين وقد تجولت حول المكان دون أن أجد شيئاً ذا أهمية خاصة، إلاَّ من مصيدة خشبية بدائية يستخدمها الناس لصيد طيور الحجل التي تدخل حقولهم من عند الصخور المجاورة.

يتصل المجرى، عند قرية آل طوق على جانب الوادي الأيمن، مع بطن مسيل محض الذي يشبه الدلتا والذي بدوره ينحدر من سلسلة مرتفعة على الجانب الجنوبي. كانت ارتفاعاته السفلى مغطاة بكثافة بالأشجار، وقد كانت أشجار الطلح مهيبة، وقد تأخرت بينها لفترة أطارد طائر ناقر الخشب، وهو أول طائر من هذا النوع أراه منذ مغادرتي محيط خميس مشيط. كانت مطاردتي له ناجحة وقد تحصلت على عينة منه لأسجل هذا الامتداد البعيد إلى الجنوب لطائر عربي صرف والذي لم يسجل وجوده بعد في اليمن أو في مناطق شمالية لا تتجاوز قرية محدثة. كان من بين الطيور التي شوهدت في هذا الموقع: الطائر الناسج والردستارت والشادي والطيور الصحراوية العادية. مثل الحمام والبلاكستارت والأبلق.

ينحدر مسيل محض من عند هذه المرتفعات الواسعة الكثيفة الأشجار عبر سلسلة عالية إلى وادي صغير ضيق وجميل عبر الممر المحاط بالصخور إلى ارتفاع ١٥٠ قدماً فوق قتم و٧٠٠٠ قدم فوق سطح البحر.

وصلنا إلى بركتين صخريتين قبل أن نصل إلى المدر، تسميان معاً ميين وتغذيهما العيون التي تسيل من جانب الجبل عند قاعدة الصخر الرملي الذي يرتفع هنا على الجانبين إلى الوادي الصغير في الصخور الترسبية وإلى ارتفاع ٣٠٠ قدم. قررنا أن نقضي الليلة في هذا الموقع الجميل حيث الماء الوافر وقد عسكر الرعاة الذين كنا قد اشترينا منهم جديين بسعر ريال واحد في الوادي الضيق، وقد انتشرت سراخس كزيرة البئر ونبات القصب ونبات الحرف وبغزارة في الجداول الصغيرة التي يدخلها الماء من البرك ومن منابعها في الصخور. يقال إن المياه هنا تنساب على مدار العام، غير أنها في مجراها العادي نادراً ما تصل إلى الجزء الأسفل من المسيل. كان الطقس دافئاً ومريحاً تحت حماية الصخور العظيمة وقد بلغت درجة الحرارة أثناء الليل ٤٢ درجة.

أقبلت حشرات العثة وحشرات أخرى بأعداد كبيرة إلى ضوء مصباحي ليلاً، وقد عمنا الإحساس بالراحة والاكتفاء بعد أن تناولنا الوليمة المعدَّة من لحوم الجديين والرمان الذي اشتريناه في ظهران بسعر ٥٠ حبة مقابل ريال واحد. كان هذا الرمان من إنتاج مزارع جميل اليهودي ومن مخزون شتائه، غير أنه أفادنا بأنه في موسم الحصاد يرخص السعر وقد يشتري المرء هذه الفاكهة بسعر ١٠٠ حبة أو أكثر بريال واحد وذلك لأن الرمان يكون حينها وافراً في كل هذه الهضبة العالية. تعتبر قرية ميين واحدة من المواقع المثالية لإقامة معسكر من بين كل رحلاتي فهي منظر لا ينسى لجمال فطري.

صعدت إلى قمة إحدى الجلاميد الصخرية الرملية في الصباح بصحبة أحد مرشدي، تاركين بقية الزملاء الآخرين لرفع المعسكر استعداداً لبداية مسيرة اليوم التي يمكنني متابعة موقع مسارها العام من أعلى، وستتجه ناحية الجنوب الشرقي

من عند ممر يقع في وادي ضحضة الذي يبدو وكأنه مـجرد مسيل فقط أول الأمر، ثم يتسع أثناء انطلاقـته مع تدفق مسايل عـديدة أخرى وروافد إليه من جـهة تلك البلاد الصعبة المكسرة ناحية الغـرب، وإلى ما وراء موقع عبورنا لمجراه، ثم يستمر في اتجاه جنوب الشـرق ليتصل مع مجـرى آخر يسمى خنق الذي يتصل بشـعيب هلال بالقرب من حددة ويكون بذلك أحد روافد حبونا.

تؤدي السلسلة التـي أقف عليهـا الآن خـدمة أخـرى وذلك لأنهـا هي المنبع لمصدرين من المنابع المـساهمة في صنع هذا الوادي العظيم. تهـبط روافد ضحـضة من عند كل من قعمة أبالشيخ وقعمـة الأعربة، وهما فرعان مائلان لسلسلة السراة الرئيسة والتي تقع قريباً منا وأمامنا ناحيـة الجنوب الغربي، وتقع قعمة أبالشيخ قبل قعـمة الأعربة. لقد كـانت ظهران نفسـها محجـوبة عنا بسلسلة حمرة، غـير أننا نستطـيع رؤية القرى التي تكون تحـتها وكـذلك قرى قـتم إلى أسفل حتى مـلتقى العرين. كـما توجد أمـامنا منطقة حدودية في كل امـتداد هضبـتها، وقـد كانت سلسلة مضرع ذات أهمية خاصة لي، وقد كنا قد رأيناها على مسافة من قبل، غير أنها الآن تبدو مهـيبة بتركيبها الشـديد الانحدار ويمر طريق نجران – ظهران الرئيس عند سفح طرفهـا الغربي، والذي يغادر نجران –كما ذكـر سابقاً– عند ممر يقع في أعلى شعيب برن.

تمكنّا من اللحاق بقافلتنا سريعاً في شعـيب ضحضة، ورجعنا مرة أخرى إلى أسفل المسـتوى للحجـر الرملي في وسط الجلاميـد والنتوءات الكئيـبة المكونة من تركيب بركاني ورسوبي. ثم عبرنا من فوق سلسلة منخفضة بعد أن عبرنا المجرى، وقد كانت تفصله هذه السلسلة عن خط مهر جعر الصرفي الضحل والذي هو أحد روافد خنق وقد ملأتـه أشجار القرظ التي تحولت إلى غابة، إلى جـانب شجيرات

الباليتو التي توجد داخل وخارج مجرى شعيب فرح، الذي ينبثق من عدة مسايل معقدة نازلة من سفوح السلسلة الصخرية الرملية التي تقع قليلاً إلى الخلف من طريقنا وتجاه الغرب. وجدت عدداً من النقوش على صخرة ساقطة من الحجر الرملي على جانب الطريق، ومعظمها كان باللغة العربية وكانت كلها ذات قيمة قليلة، وإحداها كانت بالعبرية. لا نزال مستمرين في المسيرة في مجرى مهر، متجهين إلى أسفل، ناحية الشرق، وقد تسلقنا إلى خارجه قبل اتصاله مع جعر، وذلك من على منحدر سهل من صخر رملي، ثم على سهل متموج تخترقه بحيرات عديدة لشعيب جعر نفسه، وكلها كانت منحدرة من عند السفوح الصخرية الرملية لسلسلتي كل من قدم منصور ونزوح وتبعدان على مسافة ميل واحد من هنا.

كان الجانب الجنوبي من نزوح هو أيضاً منبع لوادي نجران، وذلك لوجود مسيل آخر له اسمه الخاص به يجري جنوباً من عند وادي نجران ليتصل مع وادي ثويلة، وهو رافد لشطيبة الذي هو بدوره رافد لوادي الحصن الذي يجري إلى أسفل إلى وادي العرض والذي يكون حين اتصاله مع وادي مروان، وادي نجران.

وصلنا الآن إلى مستجمع الماء الذي يقع بين حبونا ونجران، وقد زرنا وعبرنا، بالقرب من منبعه، كل روافد حبونا، تكون حبونا. ومنابعه، في رأيي، النقلة من العربية السعيدة إلى الصحراء العربية[١] تاريخياً وجغرافياً وجيولوجياً.

---

(١) العربية السعيدة « Arabian Flex » والصحراء العربية «Arabian Deserta » هما مصطلحان جغرافيان تم استخدامهما من قبل الكتاب الإغريق، غير أن العربية السعيدة كانت تشمل جميع أراضي الجزيرة الواقعة جنوب الخط الممتد من الخليج العربي شرقاً وحتى خليج العقبة غرباً. (المراجعون).